أثر القرآن الكريم في شعر الأخطل

د. إسماعيل أحمد العالم
جامعة اليرموك

القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذْ لم يُتح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، فهو معجزة بيانية، ومن الطبيعي ألاّ تمرّ هذه المعجزة البيانية بحياة العرب من دون أن تؤثر في أدبهم، فقد أثر القرآن في الأدب العربي تأثيراً كبيراً سواء من حيث اللغة والأسلوب أم من حيث المعاني والأفكار أم من حيث الصور والأخيلة. صحيح أن القرآن الكريم نزل واللسان العربي قد صقلته فصاحة الأعراب، يصوغ تجارب الحياة وأحداثها في مثل وحكمة، ويفسرها في سجعة وينثرها في خطبة وينظمها في قصيدة، وكان هذا اللسان العربي قد قطع دهراً من عمره الفني يخترع المعنى وينتقي اللفظ ويرسم الصورة ويثقف الأسلوب، فلم يكن للقرآن ليُري القوم إعجازه ومعجزته إلاّ أن يأتيهم بأسلوب لم تألفه صياغة القول عندهم من قبل، أسلوب يدهش الفكر والذوق واللسان، فجاء فريداً في نظم آياته، بديعاً في أداء أغراضه، رائعاً في عرض صوره ومخترعات بلاغته، له بلاغة القول الرفيع وبلاغة أخرى لم يعرف سرّ رقتها وبيانها وأحكامها. وله وقع الشعر في النفوس، ووقع جديد يحسّ به السامع ولا يحدده، وله موسيقى السجع ولكنه ليس من السجع المعروف، وله من رقة النثر الفني وطلاوته كل ما وفره الفن للنثر من سماحة اللفظ ورقة العبارة، وانسجام الرصف وراحة الفواصل واكتمال المعنى وتلاحق الأفكار. وظلّ، إلى ذلك، كما وصف نفسه ﴿قُل لئنِ اجتَمعتِ الإنسُ والجنُ على أنْ يأتُوا بِمِثلِ هذا القُرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظَهيراً﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء، الآية رقم ٨٨.

وليس في نيتنا هنا الكلام على الخصائص الفنية لأسلوب القرآن، فقد عقدت لذلك دراسات عديدة منذ أن فقه العرب هذا السفر الجليل. وما زالت هذه الدراسات تتوالى وتحوم حوله من دون أن تقع على سرّ إعجازه وبلاغته، وظل بعد طول الدرس والتحليل واختلاف الأجيال "قرآناً" لا هو شعر ولا هو نثر. إنما الذي يعنينا هو موقف الأدباء منه وأثره في بعث الفكر العربي وما فتحه له من دروب للمعرفة.

لا شك أن الشعراء كانوا من أوائل الذين اهتموا بتدبّر القرآن ودراسته، ذلك لما لهم من كفاءات فنية ومعرفة طبيعية في فنون القول وأساليب التعبير، بالإضافة إلى أنهم كانوا يمثلون الطبقة المثقفة التي تُعنى بمثل هذه الأمور والتي يهمها أن تتدارس ما يجدّ على ميدان عملها. وليس أدلّ على هذا الاهتمام من كثرة الشعراء الذين أسلموا على يد الرسول الأكرم بعد أن استمعوا إلى قرآنه مادة وأسلوباً. ويبدو أن بعض الشعراء قد انكبّ على دراسة القرآن مأخوذاً بمادته وأسلوبه حتى شغل به عن مزاولة نظم الشعر، فقد روي أن عمر بن الخطاب سأل لبيد بن ربيعة عمّا أحدثه من الشعر في الإسلام، فقال لبيد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وسورة آل عمران، فزاد عمر في عطائه فبلغ به ألفين[1].

ويبدو أن الانصراف إلى دراسة القرآن الكريم لم يكن بدافع الرغبة الشخصية وحدها، بل أن المسؤولين كما تشير إليه الرواية، قد عملوا على تشجيع الناس على دراسة القرآن، ومن صور هذا التشجيع أن الخلفاء والأمراء المسلمين

---

(١) الجمحي، محمد بن سلام (ت٢٣١هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٣، ج١، ص١٣٥، وما بعدها.

كانوا يهيبون بالأخطل إلى اعتناق الإسلام، ويحضونه على التخلي عن نصرانيته[1].

ومهما يكن من أمر فقد انتشر القرآن بانتشار الإسلام، وعمل المسؤولون - التزاماً بفروض الرسالة - على اطلاع الناس عليه، فكثر المفسرون والقراء، وكثر حفاظه ورواة قصصه، وأصبح بالإضافة إلى كونه دستوراً ينظم شؤون الحياة الإسلامية، مصدراً ضخماً من مصادر الثقافة والحركة الفكرية عند العرب، وكان الأدب شعراً ونثراً أشدّ جوانب هذه الحياة تأثراً بالقرآن، ذلك لأن الشعر والخطابة كانا وسيلة العصر للتعبير عن شؤون حياته العامة، ولما كان القرآن قد جاء ليقيم هذه الحياة على نمط جديد، كان الأدب بحكم دوره المذكور عنصراً من عناصر هذه التجربة، فلم يكن له بطبيعة الأمر أن يظلّ في معزل عنها، ولم يكن لآثارها أن تظهر عليه إلاّ حين يستوي لها الأمر، وتقطع المرحلة الطبيعية من مراحل وجودها، وهي مرحلة التثبت والاستقرار، وإذا رأينا أن أثره ظلّ مقتصراً على خطب الخلفاء الراشدين وشعر بعض الشعراء الذين دافعوا عن الرسول الأعظم، ذلك لأن العرب في هذه الفترة كانوا ما زالوا في دور دراسة القرآن والاطلاع عليه، غير أن آثاره ستظهر جلية واضحة في أدب النصف الثاني من القرن الأول، حين بدأ التأثر والتمثل والاستيعاب لأدب القرآن ومادته، وهذا ما سنحاول عرضه في ميدان واحد من ميادين الإنتاج الأدبي وهو الشعر، وفي شعر شاعر من هذه الفترة وهو الأخطل.

ولد الأخطل نحو سنة عشرين في الحيرة[2]، ونشأ فيها يقول الشعر مغرماً بالهجاء، وكان جريئاً على الناس، سفيه اللسان، فلقّب بالأخطل، وما أن شبّ

---

(١) الأصفهاني، أبو الفرج (ت٣٦٠هـ)، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٣، ج٨، ص٢٩٠.

(٢) الحاوي، إيليا سليم، شرح ديوان الأخطل التغلبي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨، ص٢١.

الأخطل حتى وجد نفسه في دولة إسلامية وفي أمةٍ تقرأ القرآن وتفسره، وتقيم حياتها على ما رسمه من قواعد وما تستنبطه منه من تشريعات وأحكام. وكان كلما تقدم به العمر وجد نفسه في حركة فكرية إسلامية دائمة، تمثلها هذه الطوائف والشيع التي اشتجر بينها الخلاف، فاشتد بينها الجدل والكلام، وكل يحاول أن يصدر في حججه ورأيه عن القرآن، وكان من فضل ذلك أن اشتدت الثقافة القرآنية، وبدأت الحياة العامة تصطبغ بصبغة الإسلام.

أما عن الجانب الديني من حياة الأخطل الخاصة، فقد كان يدين بالنصرانية، ولم يتأثر بالتعاليم الإسلامية تأثراً وجدانياً، بل تأثراً سياسياً لم يصرفه عن نصرانيته ويحفزه إلى اعتناق الدين الإسلامي، وكان تشبثه بمثل الجاهلية وحرصه على تقاليد البادية قد دعاه إلى أن يستهين بالقيم الخلقية والدينية التي أرسى دعائمها الإسلام، وليس معنى ذلك أنه كان يأخذ نصرانيته مأخذ تقة ودرس، بل أنه فطر عليها وجرى فيها مجرى التقليد، واعتصم بها من ضمنه اعتصامه بقبيلته تغلب المتعاظمة بذاتها[1].

ولسنا هنا في سبيل التأييد أو التفنيد لما خلع على الأخطل من صفات الاستهانة، وإن كنّا نعتقد أن الإيمان بالنصرانية لم يدخل قلبه، وأن الحاكم الأموي الذي يدين بالإسلام لم يرفق طبعه الذي اتسم بالعنف واللعنة والإقذاع، استحال الشاعر معها إلى نفيضٍ من الشعور بالكبر وعظم القدر إذا أمدّاه بتلك العنجهية التي أخذت تنفح من روحها في مدائحه ومفاخره وأهاجيه، فهو يعيش بشعوره وعواطفه في الجاهلية، يهجم على اللذة متهتكاً، ويفتخر بذلك، ولا يبالي أن

---

(١) الخطيب التبريزي (ت٥٠٢هـ) شرح القصائد العشر، تحقيق كارلوس ليال، ١٩٦٢، ص١٠٨.

يصم نفسه بالزنا وشرب الخمر في بلد إسلامي، يتحرج فيه الناس من إعلان هذه الآثام الغليظة، وينكرونها أشدّ الإنكار[1].

وسواء أكان الأخطل فاسقاً مستهتراً أم متظاهراً بعدم الانفكاك من دين النصرانية، فإن ديوانه يدل على ثقافة إسلامية ومعرفة بالقرآن الكريم، واطلاع على أحكامه وقصصه ومعانيه وصوره، وتأثر بهذا الأسلوب، وتقليد واضح لصياغته، وأخذ واسع من ألفاظه وتعابيره، بالإضافة إلى استعماله لغير قليل مما شاع من المصطلحات، والألفاظ التي جدّت مع الحياة الإسلامية.

ومن ألوان هذا التأثر بالقرآن، أن الشاعر يرى فيه دستوراً وشريعة للحياة إذ يقول[2]:

حُشْدٌ على الحقّ، عيّا فو الخنى أنفٌ ... إذا ألَمت بهم مكروهةٌ صبروا
وإنْ تدجّت على الآفاق مُظلمةٌ ... كان لهم مَخْرجٌ منها ومُعْتَصَرُ
أعطاهُمُ الله جدّاً، ينصرون به ... لا جدَّ إلاّ صغيرٌ، بَعْدُ، محتقرُ
لم يأشروا فيه، إذْ كانوا مَوَاليه ... ولو يكون لقوم غيرهم، أشروا
شمسُ العداوة، حتى يستقاد لهم ... وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا

مقتبساً هذه المعاني من عدة آيات:

﴿واصبرْ على ما أصابكَ إنّ ذلكَ منْ عزمِ الأُمُور﴾[3].

و﴿اللهُ وَلِيّ الذَين آمنُوا يُخْرِجُهُم من الظُلُماتِ إلى النُّورِ﴾[4].

---

(١) الأغاني، ج٨، ص٢٩٠.
(٢) شرح ديوان الأخطل، ص١٧١.
(٣) سورة لقمان، الآية رقم ١٧.
(٤) سورة البقرة، الآية رقم ٢٥٧.

و﴿نعْمَةً مِنْ عِندِنا كذلِكَ نَجْزي مَن شَكَرَ﴾[1].

و﴿... أشدّاءُ عَلَى الكُفّارِ رُحَماءُ بَينَهُم﴾[2].

و﴿والكاظِمينَ الغَيْظَ، والعافينَ عنِ النّاس﴾[3].

وقوله:

والناس هَمُّهُمُ الحياةُ وما أرى ... طول الحياة يزيد غير خَبَالِ
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذُخراً يكون كصالح الأعمالِ
ولئن نجوتُ من الحوادث سالما ... والنفسُ مشرفة على الآجالِ[4]

مقتبس من الآيات القرآنية:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم استَحبُّوا الحيَاةَ الدُّنيا...﴾[5].

﴿وَفَرِحُوا بِالحياةِ الدُّنْيا﴾[6].

﴿وَمِنْكُم مَن يُردُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾[7].

﴿وَمَنْ أحْسَنُ قَوْلاً مِمّن دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[8].

---

(١) سورة القمر، الآية رقم ٣٥.
(٢) سورة الفتح، الآية رقم ٢٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.
(٤) شرح ديوان الأخطل، ص٢٤٨.
(٥) سورة النحل، الآية رقم ١٠٧.
(٦) سورة الرعد، الآية رقم ٢٦.
(٧) سورة النحل، الآية رقم ٧٠.
(٨) سورة فصلت، الآية رقم ٣٣.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ...﴾[1].

وقوله:

أعاذلَ، إنَّ النفسَ فـي كـفٍّ مـالكٍ إذا ما دعا يوماً، أجابت له الرُسْـلا
ذريني فـلا مـالي يَـرُدُّ متيتـي وما إنْ أرى حيّاً على نفسـه قُفْـلا
وليس بخيلُ النفـس بالمـال خـالداً ولا منْ جوادٍ، فاعلمي، ميّتٍ هُزْلا[2]

مأخوذ من الآيتين الكريمتين:

﴿أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِككُمُ المَوْتُ ولَو كُنْتم في بروجٍ مُشَيَّدةٍ﴾[3].

و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ﴾[4].

وقوله:

فلمّـا أغَرْنَـا أغْنَـمَ اللهُ منـهُمُ وذو العرشِ يُعْطي من جزيلٍ ويمنحُ[5]

استلهمه من الآية الكريمة:

﴿ويَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ واللهُ يَرْزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[6].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية رقم ٥٧.
(٢) شرح ديوان الأخطل، ص٥٦٣.
(٣) سورة النساء، الآية رقم ٧٨.
(٤) سورة الرحمن، الآية رقم ٢٦.
(٥) شرح ديوان الأخطل، ص٦٤٤.
(٦) سورة النور، الآية رقم ٣٨.

ويدعو القرآن الكريم إلى عدم الاغترار بالحياة لأنها غير خالدة، وإلى عدم الندامة على ما فات أو التحسر عليه، مستلهماً ذلك من الآيتين الكريمتين ﴿فَلاَ تَغُرَّنَكُمُ الحياةُ الدُنيا ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾[1]، و﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُم...﴾[2]، إذ قال:

أغَرُّ لا يَحْسَبُ الدنيا تُخَلِّدُهُ ولا يقولُ لشيءٍ فاتَ مَا فَعَلاَ[3]

ويدعو إلى الإيمان بطيب المقام في جنة الله إذ ينعم المؤمنون بالطمأنينة، وينعم بها أسراب الطير حين تغرد في أرجائها آمنة، يقول:

في جنّةٍ هي أرواحُ الإلهِ فما يُفَزّعُ الطيرَ في أغصانها فَزَعُ[4]

مستلهماً قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[5]، و﴿... وَهُم مِن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُون﴾[6].

ومن يتفحص شعر الأخطل في ديوانه يجده قد تأثر بالقرآن في مدحه وفخره وهجائه ورثائه وغزله، إذ يعمد إلى معاني القرآن وصوره يقبس منها ويحلّي بها معانيه وصوره الشعرية، فصورة ممدوحه الوليد بن عبد الملك أمين الله وحصنه الحصين الذي لا يقهر إذ يفزع الناس إليه، فيغدق على النفس الأمن، ويهبها العطايا، ويصرف عنها الذعر مستبدلاً به الطمأنينة وثبات القلب والقدم،

---

(١) سورة لقمان، الآية رقم ٣٣.
(٢) سورة الحديد، الآية رقم ٢٣.
(٣) شرح ديوان الأخطل، ص٣٥١.
(٤) شرح ديوان الأخطل، ص٢٠٨.
(٥) سورة الفرقان، الآية رقم ٢٤.
(٦) سورة النمل، الآية رقم ٨٩.

مستلهماً ذلك كلّه من قوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمناً﴾[1]، و﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُم وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[2]، و﴿وَكُنتمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِنْها﴾[3]، إذ قال:

إنَّ الوليدَ أميـــنُ الله أنقذنـــي ... وكان حصناً إلى منجاتِـــه هَرَبـي
أتيتـــه وهمومـــي غـــيرُ نائمـــة ... أخا الحِذار، طريدَ القتـــلِ والـــهربِ
فآمن النفسَ مـــا تخشـــى، وموّلـــها ... قَدْمَ المواهب من أنوائـــه الرُّغُـــبِ
وثبّتَ الوطء مني، عنـــد مُضْلِعَـــةٍ ... حتى تخطّيتُها، مُســـتَرْخياً لَبَبـي[4]

وهذه صورة أخرى يبتدع فيها الأخطل المعاني التي توحي للقارئ بعظمة الممدوح همّام بن مطرّف التغلبي، ويقول إنَّ همّاماً لو كان من الجنّ لقام علـــى رأسها ولخضعت له، مستلهماً قوله تعالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمواتِ والأَرضِ طَوْعاً وكَرْهاً﴾[5]، إذ قال:

فلو كان همّامٌ من الجِـــنّ أصبحـــت ... سُجُوداً له جِنُّ البـــلادِ وغُولـــها[6]

وعندما مدحه تذكّر أن يخلع عليه صفة الرحمة إذ يمطر النـــاس بفضلـــه، وإن موته يجعل الأرض تفتقر إلى مثيل له يقوم مقامه ويحمل أعبـــاءه، وجدنـــا الأخطل يفزع إلى القرآن ويستعين بالآية الكريمة ﴿ومَـــا أرْسَـــلْناكَ إلاّ رَحْمَـــةً

---

(١) سورة النور، الآية رقم ٥٥.
(٢) سورة الأنفال، الآية رقم ١١.
(٣) سورة آل عمران، الآية رقم ١٠٣.
(٤) شرح ديوان الأخطل، ص٢٨٢.
(٥) سورة الرعد، الآية رقم ١٥.
(٦) شرح ديوان الأخطل، ص٣٥٨.

للعالَمين﴾[1]، فخلق منهـا صورة شعرية رائعة جسَّدَ بها صفات الممدوح حيـن قال:

فإن عاش همّام لنـا فـهو رحمـة ... من الله، لم تُنْفَسْ علينـا فضولُـها
وإن مات لم تستبدل الأرض مثلـه ... لأخذ نصيبٍ، أو لأمـرٍ يعولُـها[2]

ولما اعتزم مدح عبد الله بن معاوية جال في خاطره ما ناله من فضل عبد الله وكرمه، فلولاه لغشي الشيب شعره من هول ما كان أصابه من أناس حنقين عليه، يتربصون للغدر به، فشدَّ عبد الله من أزره وأنقذه من شرهم، بادر الأخطل إلى القرآن يعتمد على تصويراته في غير آية، فأجاد وأبدع في توظيفها حين استلهم قوله تعالى: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[3]، و﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾[4]، إذ قال:

لولا فواضله غداة لقيته ... بالجُدّ شاب مسايحي وعِذاري
مِنْ معشر حنقين لولا أنتم ... يا بن الخليفة ما شددتُ إزاري
والشافعون مغيّبون وجوههم ... رزمو المقالة ناكسو الأبصار[5]

وحين أراد أن يمدح عبد الملك بن مروان، انعطف الأخطل إلى القرآن العربي المبين يستلهم آياته بمعانيها وصورها، فعبد الملك يغفر ذنوب الناس، ويبدد ضلال الضالين في البلاد بنوره، إذ يعيدهم إلى سواء السبيل بعد أن أوشكوا أن يميلوا عنه، فلما قال:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية رقم ١٠٧.
(٢) شرح ديوان الأخطل، ص٣٦١.
(٣) سورة طه، الآيتان رقم ٣١، ٣٢.
(٤) سورة الشعراء، الآية رقم ١٠٠.
(٥) شرح ديوان الأخطل، ص١١١.

أحيـا الإلـه لنـا الإمـام فإنّـهُ خـيرُ البريّـة للذُّنـوب غفـورُ
نورٌ أضاء لنا البـلادَ وقـد دجَـتْ ظُلَمٌ تكـاد بـها الـهُداةُ تجـورُ[1]

اتكأ الأخطل في معانيه الجميلة في هذين البيتين الشعريين على قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2]، و﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾[3]، و﴿وَيَغْفِرُ لَكُم ذُنوبَكُم﴾[4]، و﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبكُم بِذُنُوبِكُم﴾[5]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ أولئك هم خيْر البَرِيّةِ﴾[6].

وعندما أراد أن يمدح قوم جرير بن عبد الله البجلي إذ أجاروا تغلباً في زمن يتنكر فيه الوالد لولده، تذكّر ما يتسمون به من تقوى وقيام للصلاة في المساجد، وإيمانٍ بالله الواحد الأحد، مصوراً ذلك أحسن تصوير؛ مستوحياً المعنى ومستلهماً الصورة من بعض المشاهد القرآنية كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلوا أَوْلاَدَكُم خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ... ﴾[7]، و﴿... الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[8]، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ﴾[9]، حين قال:

---

(١) شرح ديوان الأخطل، ص١٩٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية رقم ٥.
(٣) سورة المائدة، الآية رقم ١٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية رقم ٣١.
(٥) سورة المائدة، الآية رقم ١٨.
(٦) سورة البينة، الآية رقم ٧.
(٧) سورة الإسراء، الآية رقم ٣١.
(٨) سورة المؤمنون، الآية رقم ٢.
(٩) سورة الإخلاص، الآيتان رقم ١، ٢.

فقد أجاروا بإذن الله عُصبتنا ... إذْ لا يكادُ يحبُّ الوالدُ الولدا
قومٌ يظلُّون خُشْعاً في مساجدهم ... ولا يدينون إلاّ الواحدَ الصَّمَدا[1]

ولمّا أراد أن يهجو بني عبس بن بغيض بالخبث واللؤم والغباء، رأى الناس لا يترحمون على موتاهم ولا يصلّون عليهم، كما أن الأرض ترفض موتاهم، وتأبى أن تضمّهم في جوفها إذا ما قبروا فيها، وإذا ما نحروا بُدْنهم في مكة فإنهم يُلفَوْن لغبائهم أضلّ من تلك البهائم، تخيَّر قوله تعالى: ﴿ولا تُصلِّ على أحَدٍ مِنْهُم ماتَ أبداً ولا تَقُمْ على قَبْرِه﴾[2]، و ﴿أُولَئِكَ كَالأنعامِ بَلْ هُمْ أضلّ أولئكَ هُمْ الغَافِلون﴾[3]، حين قال:

ولا يُصلّي على موتاهُمُ أحدٌ ... ولا تقبّلُ أرضُ الله ما قبروا
إذا أناخوا هداياهم لمنحرها ... فهم أضلُّ من البُدْنِ الذي نحروا[4]

واندفع يقلّب صفحات ذهنه ومختزن ذاكرته يبحث فيهما عمّا يناسب من معان وصور يهجو بها قوم قيس عيلان الذين كانوا ذوي نعمة يرتعون بخيرها، حتى وسوس لهم الشيطان وغرّر بهم، فركبوا مركباً وعراً يشبه ركوب ناقة مسنة قد تساقط وبرها عن جسمها، فتذكّر قول الله تعالى: ﴿ألَمْ تَرَ إلى الذينَ بَدّلوا نِعْمَةَ الله كفرا﴾[5]، و﴿فكَفَرتْ بأنعُمِ الله فأذاقها اللهُ لِباسَ الجوعِ والخَوْفِ﴾[6]، إذ قال:

---

(١) شرح ديوان الأخطل، ص٣٣٤.
(٢) سورة التوبة، الآية رقم ٨٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية رقم ١٧٩.
(٤) شرح ديوان الأخطل، ص٤٦٦.
(٥) سورة إبراهيم، الآية رقم ٢٨.
(٦) سورة النحل، الآية رقم ١١٢.

كانوا ذوي إمَّةٍ، حتـــى إذا علِقَـتْ بهم حبـــائل للشيطـــان وابتُـــهروا
صُكُّوا على شارفٍ، صعبٍ مراكبها حصّاءَ ليس لها هُلْـــبٌ ولا وبَـــرُ[1]

وخلع على كليب بن يربوع قوم جرير المذلة إذْ لا يملكون زمام أمرهـــم، فيقضي به الناس عنهم، وهم غفل لا يلمون بشيء ولا يشعرون به، مستوحياً ذلك من قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيهم الأنباءُ يومئذٍ فهُمْ لا يتساءلون﴾[2]، إذ قال:

مخلَّفون ويقضـــي النـــاسُ أمْرَهُـــمُ وهُمْ بغيبٍ وفي عَمْيَاء ما شعروا[3]

ومن أفانين التأثير القرآني في شعر الأخطل أن يعمد أحياناً إلى أن يفـــرّغ معنى آية أو أكثر في بيت واحد، مستعيناً على ذلك بقســـم مـــن الألفـــاظ التـــي تستعملها الآية نفسها بعد أن يغيّر في صيغها ما تتطلبه الضرورات الفنيـــة فـــي الصياغة الشعرية، ومن أمثلة ذلك قوله:

وأهجُرُكِ هِجراناً جميـــلاً وينتحـــي لنا، مـــن لياليـنـــا العـــوارِمِ، أوّلُ[4]

فالبيت الشعري مقتبس من الآيـــة الكريمـــة: ﴿ ... وَاهْجُرْهُـــمْ هَجْـــراً جَمِيلاً﴾[5]، وقوله:

---

(١) شرح ديوان الأخطل، ص١٧٥.
(٢) سورة القصص، الآية رقم ٦٦.
(٣) شرح ديوان الأخطل، ص١٧٧.
(٤) شرح ديوان الأخطل، ص٢٦٤.
(٥) سورة المزمل، الآية رقم ١٠.

عفا واسطٌ من آل رِضْـــوَى فَنَبْتَـــلُ فَمُجتَمَعُ الحُرَّيْنِ، فالصبرُ أجمـــلُ[1]

مقتبس من الآيتين: ﴿.. فَصَبْرٌ جَمِيل﴾[2]، و﴿فاصْبِرْ صَـــبْراً جَمِيـــلاً﴾[3]، وقوله:

وقد لبستُ لـــــهذا الدهـــر أعْصُـــرَهُ حتّى تجلَّلَ رأسي الشيبُ واشتعلا[4]

فالبيت الشعري تلخيص لمعنى الآية الكريمة: ﴿قَالَ ربِّ إنّي وهَنَ العَظـــمُ مِنّي واشْتَعَلَ الرّأسُ شَيْباً﴾[5].

وقوله:

اليوم أجهدُ نفسي ما وســـعتُ لكـــم وهل تكلّفُ نفسٌ فوقَ مـــا تَسَـــعُ[6]

تلخيص لمعنى الآية: ﴿لا تُكَلَّفُ نفسٌ إلاّ وُسْعَها﴾[7].

---

(١) شرح ديوان الأخطل، ص٢٥٩.
(٢) سورة يوسف، الآية رقم ١٨.
(٣) سورة المعارج، الآية رقم ٥.
(٤) شرح ديوان الأخطل، ص٣٤٧.
(٥) سورة مريم، الآية رقم ٤.
(٦) شرح ديوان الأخطل، ص٢١٠.
(٧) سورة البقرة، الآية رقم ٢٣٣.

وقوله:

وفي الرجال يـــراعٌ لا قلـــوبَ لـــهم أغمارُ شُمْطٍ، فما ضرّوا وما نفعوا[1]

فالبيت الشعري تلخيص لمعنى الآيتين: ﴿وَقَذَفَ في قُلُوبِـــهِمُ الرُّعْـــبَ﴾[2]، و﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ في غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا.. ﴾[3].

وقوله:

كأنه ســـاجد، مـــن نضـــخ ديمتـــه مسبِّحٌ، قام نصف الليل، فابتـــهلا[4]

فقد قبس الأخطل المعنى من غير آية ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْـــلِ سَـــاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ﴾[5]، و﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمواتِ وَمَـــنْ فِـــي الأَرْضِ﴾[6].

ومن أنماط التأثير القرآني الأخرى في شعر الأخطل إفادته مـــن مغـــزى بعض القصص القرآني إفادة ذكية في مواطن من شعره كانت تقتضيه ذلك. فإذا ما هجا بني عامر إذْ خلت ديارهم من الحكماء الذين ينهون أهلهم عـــن الغـــدر والمنكر، سلّط الله عليهم التغلبيين ليهلكوهم، تذكّر ناقة صالح التـــي ســـلطها الله على ثمود فأهلكتها عندما جحدت بآيات ربها وعصت رسولها، فأرسل الله إليـــهم الناقة آية، يقول:

---

(١) شرح ديوان الأخطل، ص٢٠٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآية رقم ٢٦.
(٣) سورة المؤمنون، الآية رقم ٦٣.
(٤) شرح ديوان الأخطل، ص٣٤٤.
(٥) سورة الزمر، الآية رقم ٩.
(٦) سورة الحج، الآية رقم ١٨.

ولما رأى الرحمن أن ليس فيهم رشيدٌ، ولا ناهٍ أخاه عن الغدر
أمال عليهم تغلبَ ابنة وائل فكانوا عليهم مثل راغيةِ البكْرِ[1]

وفي هذا اتكأ الأخطل على الآيتين الكريمتين ﴿ويا قَوْمِ هذه ناقةُ الله لكُم آيةً فَذَرُوها تأكلُ في أرضِ الله﴾[2]، و﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر﴾[3]، و﴿فَعقَرُوا النَّاقَةَ وَعتَوْا عَنْ أمْرِ رَبِّهِم﴾[4].

وعندما عزم الأخطل على هجاء نفيع بن صفّار المحاربي الذي لا يزال يفخر بأيام بني قومه على التغلبيين، قال له: لا تدَّعِ المعالي ولا تتبجح بقدرتكم على مساورة الأعداء والقضاء عليهم، فإن قدرة التغلبيين في القضاء على أعدائهم تشبه حية موسى التي توسلها يوم أيّده الله بنصره، قال:

تخلَّ ابنَ صفّار، فلا تَذْكُرِ العُلَى ولا تذكُرَنْ حيّات قومك في الذِّكْرِ
فقد نهضتْ للتغلبيين حيَّةٌ كحيَّةِ موسى يوم أُيِّدَ بالنصرِ[5]

مستمداً ذلك من الآيات القرآنية ﴿وأَلْقِ ما في يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنَعُوا إنَّما صنَعُوا كَيْدُ ساحرٍ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أتَى﴾[6]، و﴿فَألقى عَصَاهُ فإذا هي ثُعبانٌ

---

(١) شرح ديوان الأخطل، ص٤٣٠.
(٢) سورة هود، الآية رقم ٦٤.
(٣) سورة القمر، الآية رقم ٢٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية رقم ٧٧.
(٥) شرح ديوان الأخطل، ص١٥٩.
(٦) سورة طه، الآية رقم ٦٩.

مُبِين﴾[1]، و﴿فَألقَى مُوسى عَصاهُ فإذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأفِكُون﴾[2]، و﴿قال أَلْقِها يا مُوسى، فَأَلْقاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى﴾[3].

وأفاد الأخطل من قصص يوسف وهارون وداود ونوح عليهم السلام، عندما خاطب يزيد بن معاوية، منوّهاً بما كان من أمر حمايته له بعد أن تشرّد في الهاجرة، راجياً من الله أن يثيبه ثواب أولئك الأنبياء والأولياء إذ قال:

أمّا يزيد فإني لستُ ناسِيَهُ ... حتى يغَيّبني في الرَّمْسِ ملحُودُ
جزاك ربُّك عن مستَفْرَدٍ وحَدٍ ... نفاهُ عن أهله جُرْم وتشريدُ
مستشرِف، قد رماهُ الناسُ كُلُّهُمُ ... كأنّهُ، من سَموم الصيفِ، سَفُّودُ
جزاءَ يوسفَ إحساناً ومغفرةٍ ... أو مِثْلَ ما جُزيَ هارونٌ وداودُ
أو مثلَ ما نالَ نوحٌ في سفينته ... إذا استجاب لنوحٍ، وهو منجودُ
أعطاه من لذّةِ الدنيا وأسكَنَهُ ... في جنّةٍ نعمةٌ فيها وتخليدُ[4]

مستمداً ذلك من الآيات القرآنية ﴿قيل يا نُوحُ اهْبِطْ بسلامٍ منّا وبَركات عَلَيكَ..﴾[5]، و﴿ذُرِّيةَ مَنْ حَملنا مَعَ نُوحٍ إنهُ كَانَ عبداً شَكُورا﴾[6]، و﴿وكَذلك مكّنّا لِيوسُفَ في الأرضِ ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَاويلِ الأحاديث﴾[7]، و﴿يُوسُفُ أيّها الصّدِيقُ أفْتِنا في سبْعِ بقراتٍ سِمانٍ﴾[8]، ﴿.. وآتينا داودَ زَبُورا﴾[9]، و﴿وسَخّرنا مَعَ داوُدَ الجِبالَ

(١) سورة الشعراء، الآية رقم ٣٢.
(٢) سورة الشعراء، الآية رقم ٤٥.
(٣) سورة طه، الآيتان رقم ١٩، ٢٠.
(٤) شرح ديوان الأخطل، ص٩٧.
(٥) سورة هود، الآية رقم ٤٨.
(٦) سورة الإسراء، الآية رقم ٣.
(٧) سورة يوسف، الآية رقم ٢١.
(٨) سورة يوسف، الآية رقم ٤٦.
(٩) سورة الإسراء، الآية رقم ٥٥.

يُسَبِّحن والطَّيْرَ وكُنَّا فَاعلين﴾[1]، و﴿ولَقَد آتَينا داودَ وسُليمانَ عِلْمـا﴾[2]، و﴿وَورِثَ سُليمانُ داودَ وقالَ يا أيُّها الناسُ عُلِّمنا مَنطِقَ الطَّيرِ﴾[3]، و﴿ولقد آتينـا داودَ منّـا فَضْلاً يا جِبالُ أوِّبي مَعهُ والطَّيرَ﴾[4]، و﴿يا داودُ إنّا جَعَلْناكَ خليفـةً فـي الأرضِ فاحْكُمْ بَينَ النّاسِ بالحَقّ﴾[5].

وجملة القول، لقد شاع القصص القرآني في شعر الأخطل عامـة، وفـي الشعر الذي هجا فيه أعداء تغلب، والذي مدح فيه خلفاء بني أمية خاصـة، فقـد كان للخلفاء صفة دينية بحسبانهم خلفاء الرسول الأكرم فـي رعايـة رسـالته، وكونهم قوّامين على تطبيق أحكام القرآن، فكان لا بدّ للأخطل مـن أن يسـتعين بالقرآن حين يمدح الأمويين.

ولم يتوقف تأثر الأخطل بالقرآن عند هذا حسب، بل ظـهر فـي شعـره إشارات إلى أحكام القرآن، فعندما أراد هجاء بني كليب تذكّر استباحتهم حقـوق الجار وما يحفظ له من ذمار، إذْ قال:

ما زال فينا ربـاط الخيـل معْلَمـةً ... وفي كليب ربـاطُ الـذُلّ والعـار
النـازلين بـدار الـذلّ إنْ نزلـوا ... وتستبيحُ كليـبٌ مَحْـرَمَ الجـارِ[6]

وإلى جانب هذه الأمثلة التي ذكرناها، نجد أن الأخطل قد اسـتعمل فـي شعره مجموعة كبيرة من ألفاظ العصر الإسلامي ومصطلحاته، سواء منـها مـا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية رقم ٧٩.
(٢) سورة النمل، الآية رقم ١٥.
(٣) سورة النمل، الآية رقم ١٦.
(٤) سورة سبأ، الآية رقم ١٠.
(٥) سورة ص، الآية رقم ٢٦.
(٦) شرح ديوان الأخطل، ص٣٦٩.

ابتدعته هذه الحياة أم وجدته مستعملاً في اللغة، فحملته معنى من معانيها، فأصبح ذا صبغة إسلامية، ولما كانت الحياة الإسلامية قد تميزت بميدانين جديدين همـــا ميدان الحكم والسياسة وميدان الدين، فإن أكثر ما نجده من ألفاظ إســـلامية فـــي شعر الأخطل يتصل بهذين الميدانين، ولمّا كان ديوانه مليئـــاً بـــهذه المفـــردات سنكتفي بذكر أمثلة من كلتا المجموعتين من دون ذكر الصفحات.

فمن أمثلة المفردات والمصطلحات التي تتصل بالدولة والسياسة:

أمير المؤمنين، خليفة الله، الخلافة، أمين الله، الإمام، إمام الناس، الأئمـــة، أئمة الكفر، المظلوم.

ومن أمثلة المفردات والمصطلحات التي تتصل بالحياة الدينية الجديدة:

الحق، العفو، الصدق، الحمد، الصبر، الوفاء، السجود، المسجد، الإحسان، التقوى، تقى الله، العهد، ذو أمانة، ذو العرش، الرحمن، الجنة، الإسلام.

لقد أحدث القرآن هزّة في الفكر العربي وأساليب تعبيره، وبات لأهل الرأي والثقافة مصدراً أساسياً في عملهم الأدبي، ولم يكن للأخطل الشاعر الذي حفلـــت بذكره أسواق الأدب وحلقات العلماء، أن يغفله ويصدّ عنه، ولعلّ ممـــا زاد فـــي اهتمامه بهذا السفر الجليل أنه واضع طاقته الفنية للإسهام في أحـــداث عصـــره، تلك الأحداث التي كان القرآن مدارها في ميادين الخلافـــة والسياســـة والديـــن، ويُضاف إلى ذلك أن ظروف عصره السياسية والقبلية كانت دفعته إلى الوقـــوع في خصومة عنيفة مع شاعر مثله شهرة ومكانة فنية هو جرير، وكان جرير فيما يروى عنه ينتمي إلى آباء وعشيرة عرفت بأنها كانت ترعى الغنـــم والحمـــير، وكان أبوه عطية متخلفاً في المال مبخلاً، فوجد الأخطل في هذه الصفات مجـــالاً للطعن في خصمه. ولهذه العوامل مجتمعة، أكثر الأخطـــل مـــن ذكـــر القـــرآن

والرجوع إليه، وتزوّد منه بمادة لا تكاد قصيدة في ديوانه تخلو من إشارة إلى لون من ألوانها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٣م.

٢- الحاوي، إيليا سليم، شرح ديوان الأخطل التغلبي، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨م.

٣- الخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق كارلوس ليال.

٤- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٣م.